إمارة جكرمش في الموصل

٤٩٥ هـ - ٥٠٠ هـ

رشيد الجميلي
المدرس بقسم التاريخ

كانت وفاة الامير كوبوقا[١] صاحب الموصل فى ذى القعدة من سنة ٤٩٥ هـ عند مدينة خوى[٢] ، وكان السلطان بركياروق قو ارسله فى سنة ٤٩٤ هـ الى اذربيجان فاستولى على اكثرها ، ثم ادركه الموت فى خوى، وكان يصحب كربوقا فى تلك الحملة كل من الامير أصبهذ صباوه بن خمارتكين ، وسنقرجه ، فعهد كربوقا بولاية الموصل الى الامير سنقرجة ، « وأمر الاتراك بطاعته وأخذ له على عسكره العهد »[٣] .

وعاد سنقرجة بمن معه من عساكر الموصل ، فدخل المدينة وأقام بها ثلاثة أيام ، الا ان ولايته لم يكن مرغوب بها عند أهل الموصل فعمدوا الى الاتصال بالامير موسى التركمانى وكان عاملا لكربوقا على حصن كيفا[٤] ، ودعوه لتسلم البلد، فأسرع فيالتوجه نحوالموصلفلما علم سنقرجه بمسيره ظن انه جاء خدمة له ، فخرج لاستقباله فى جماعة من اعيانالموصل

---

(١) حول الامير كربوقا انظر البحث الذى نشره كاتب المقال فى المجلة التاريخية العدد الثانى ١٩٧٢ .

(٢) خوى : بلد مشهور من اذربيجان كثير الخير ، البغدادى : مراصد الاطلاع ج١ ص ٤٩٣ . طبعة مصر ١٩٥٤ .

(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج١٠ ص ٣٤١-٤٤٢ ، طبعة بيروت ١٩٦٦ .

(٤) حصن كيفا : ويقال ايضا حصن كيبا وهى بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر ، ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ٢٦٥ .

« فاعتنقا وبكيا على قوام الدولة كربوقا فتسايرا » ثم جرت مناقشو بينهما فقال سنقرجه لموسى التركماني : « انا مقصودي من جميع ما كان لصاحبنا (يقصد كربوقا) المخدة والمنصب والاموال والولايات لكم وبحكمكم » فانكر موسى على سنقرجه انفراده بولاية الموصل دون مشورة السلطان ، وقال : (من نحن حتى يكون لنا مناصب ودسوت ؟ الامر في هذا الى السلطان يرتب فيه من يريد ويولي من يختار ، واحتدم الجدال بينهما فجذب سنقرجه سيفه وضرب رأس موسى فجرحه فالقى الاخير بنفسه على الارض وجذب معه سنقرجه ، وكان يرافق موسى ولد منصور ابن مروان فجذب سكينا وضرب بها رأس سنقرجه فأبانه ودخل موسى التركماني الموصل وخلع على اصحاب سنقرجه وطيب نفوسهم فصارت الولاية له[٥] .

تدخل الاميرجكرمش في ولاية الموصل :

كان الامير شمس الدولة جكرمش[٦] والياً على جزيرة ابن عمر[٧] ، فلما بلغه وفاة كربوقا ، تحركت اطماعه في ولاية الموصل ، ووجد انه احق من غيره في حكم البلاد فسار الى نصيبين واستولى عليها ، وكانت تابعة لامارة الموصل ، فخرج موسى لقتاله ، فلما اقترب من معسكر جكرمش انحازت عساكر الموصل الى جكرمش ، فاضطر للعودة الى الموصل فتبعه جكرمش وضرب الحصار حول المدينة ، فلم يكن امام موسى سوى طلب المساعدة من امراء المدن الاسلامية المجاورة فارسل

---

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٤٢ .

(٦) كان الامير شمس الدولة جكرمش من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي ـ (ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ٣١) .

(٧) جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة ايام تحيط بها دجلة من كل الجهات الا من جهة واحدة شبه هلال ، ياقوت : المعجم ج٣ ص ١٠٢ـ١٠٣ .

مستنجداً بالأمير سقمان بن ارتق صاحب ديار بكر ووعد باعطائه حصن كيفا وعشرة آلاف دينار ، فنهض سقمان على رأس قواته الى الموصل ، فلما علم جكرمش بذلك رفع الحصار ورحل عن الموصل ، فخرج موسى التركماني لاستقبال سقمان ، فلما بلغ قرية « كراثا[٨] » وثب عليه عدد من الغلمان وقتلوه فدفن على تل هناك يعرف الان بتل موسى ، وعاد اصحابه الى الموصل ، اما سقمان فقد اتجه الى حصن كيفا فملكه وبقي بيد اولاده الى سنة ٦٢٠ هـ[٩] . وهكذا اصبح الطريق مفتوحا امام جكرمش الى الموصل وخلا الجو بمقتل موسى ولم يكن هناك منافس آخر ، فعاد مسرعا الى الموصل فحاصرها اياما ثم دخلها صلحا ، فأحسن السيرة وامر بقتل قتلة موسى التركماني ، « ثم استولى بعد ذلك على الخابور وملك العرب والاكراد واطاعوه »[١٠] .

جكرمش والصليبيون :

ساهمت الموصل في حركة الجهاد ضد الصليبين في الشام في عهد جكرمش ، ومن المواقع المشهورة التي شاركت فيها قوات الموصل موقعة حران المعروفة بموقعة نهر البليخ ، في شعبان من سنة ٤٩٧ هـ / مايس ١١٠٤ م .

كانت مدينة « حران » هدفا لغارات الفرنج بالرها ، وقد زادت تلك الغارات بشكل ملحوظ بعد الضعف الذي حل بالسلاجقة عقب وفاة السلطان ملكشاه في ٤٨٥ هـ ، وانقسام السلاجقة على انفسهم ، فزادت اطماع الفرنج في الاستيلاء على هذه المدينة ، نظرا لما تتمتع به من اهمية

---

(٨) كراثا : قرية بالموصل بينها وبين جزيرة ابن عمر ، تعرف الآن بتل موسى . البغدادي : مراصد الاطلاع ج٣ ص .

(٩) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٤٣ .

(١٠) نفس المصدر : الكامل ج١٠ ص ٣٤٣ . ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص ٢٠ . طبعة النجف ١٩٦٩ .

بالغة وسقوطها بايدى الفرنج يعنى قطع الاتصال بين المسلمين فى العراق وفارس واخوانهم فى الشام[١١] .

وقد ادى اضطراب الوضع فى حران الى تطلع بلدوين امير الرها للاستيلاء عليها ، فقد ذكر ابن الاثير ان حران كانت بيد احد مماليك السلطان ملكشاه يعرف باسم قراجة فاستخلف بها احد اصحابه المدعو محمد الاصبهانى فى سنة ٤٩٦ هـ ، فاستغل الاخير فرصة غياب قراجة واعلن عصيانه ، واعانه فى ذلك اهل البلد لكراهيتهم لقراجة الذى عرف بظلمه وشراسته ، ولم يطل العهد بالاصبهانى اذا لم يلبث ان لقى مصرعه على يد « جاولى » احد اصحاب قراجة ، وقد كانت هذه الاحداث حافزا لامير الرها على مهاجمة حران ، فخرج على رأس قواته فى ربيع سنة ١١٠٤م - ٤٩٧هـ لتحقيق هذه الغاية ، وقد ادت حملة بلدوين هذه الى اتفاق جكرمش وسقمان الارتقى على قتال الفرنج رغم ما كان سائدا بينهما من خلافات ، وقد عبر ابن الاثير عن ذلك بقوله : « وكان بينهما حرب ، وسقمان يطالبه بقتل ابن اخيه وكل منهما يستعد للقاء صاحبه ، ارسل كل منهما الى صاحبه يدعوه الى الاجتماع لتلافى امر حران ويعلمه انه بذل نفسه لله تعالى وثوابه فكل واحد منهما اجاب صاحبه الى ما طلب منه »[١٢] .

كان جكرمش يقدر مدى الخطورة التى ترتب على سقوط حران بايدى الصليبيين وادرك ان هذه الخطوة ستكون مقدمة للهجوم على بلاد الجزيرة والموصل ، فعمل على تنقية الجو بينه وبين سقمان الارتقى وتناسى

---

(١١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص ٧٠ ، طبعة بيروت ١٩٦٨ ، ترجمة الباز العرينى .
عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٤٠٤ ، طبعة مصر ١٩٦٣ .
(١٢) ابن الاثير : الكامل ١٠ج ص ٣٧٤ .

الخلافات القديمة ، واسرع فى الخروج من الموصل على رأس ثلاثة آلاف فارس من التركمان والعرب والاكراد ، فاجتمع بسقمان عند « رأس العين » على الخابور ـ على مسافة ٧٠ ميلا من الرها ـ وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان(١٣) .

ولم يجد بلدوين الثانى بدا امام هذا الحشد الاسلامى سوى الاستنجاد بامراء الصليبين فى الشام فارسل الى كل من جوسلين صاحب تل باشر وبوهيمند صاحب انطاكية ، وخرج على رأس قواته نحو حران بعد ان ترك حامية صغيرة فى الرها ، وصاحبه فى هذه الحملة « بنيدكت » رئيس أساقفة الرها ، وانضمت اليه قرب حران عساكر جوسلين ، وجيش انطاكية بقيادة بوهيمند ، بالاضافة الى تنكرد والبطريرك (البطريق) برنارد ، وبلغ مجموع القوات الصليبية ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف من المشاة(١٤) .

وكانت خطة الفرنج فى المعركة تقضى بان تشتبك قوات الرها مع الجيش الاسلامى فى حين تختفى باقى القوات وراء تل منخفض على مسافة ميل الى اليمين من ساحة المعركة لتنقض على مؤخرة الجيش الاسلامى فى اللحظة المناسبة(١٥) .

ودارت المعركة بين الفريقين على شاطىء نهر البليخ(١٦) ، فى

---

(١٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ ، ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٧٤ .
رنسيمان : الحروب الصليبية ج٢ ص ١٧ـ٧٢ ، عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٤٠٤ .

(١٤) رنسيمان : الحروب الصليبية ج٢ ص ٧٢ .

(١٥) المرجع السابق : الحروب الصليبية ج٢ ص ٧٢ .

(١٦) نهر البليخ : نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من العيون ، واعظم تلك العيون عين يقال لها الذهبانية ، فى ارض حران . البغدادى : مراصد الاطلاع ج١ ص ٢٢١ .

التاسع من شعبان ٤٩٧ هـ /٤ مايس ١١٠٤م ، فتظاهر المسلمون بالانهزام ولجاؤا الى الفرار من المعركة فظن بلدوين انه تيسر له الفوز فاسرعت قواته لمطاردة المسلمين ، فانقطع بذلك الاتصال بينهم وبين باقى العساكر الصليبية ، ووقعوا فى الكمين الذى اعده المسلمون ، فاطبقوا عليهم واجهزوا على عدد كبير منهم ولم يفلت من الاسر أو القتل الا عدد ضئيل وانهزموا هزيمة منكرة[١٧] ، « وامتلأت ايدى التركمان من الغنائم ووصلوا الى الاموال العظيمة لان سواد الفرنج كان قريبا »[١٨] .

وعندما تأهب بوهيمند للهجوم واستعد للتدخل فوجىء بسيل من الفارين يتدفق من بعد يحاولون شق طريق للعودة ، فاسقط فى يده ولاذ بمن معه بالفرار ، بعد ان بلغ الخوف والجزع حدا جعل البطريرك برنارد يقطع ذيل حصانه حتى لا يمسك به احد ، ووقع بلدوين الثانى وجوسلين اسيرين فحملا الى خيمة سقمان الارتقى[١٩] ، وبلغت خسائر الصليبيين فى هذه الموقعة نحو من عشرة آلاف قتيل[٢٠] .

كان انتصار المسلمين فى حران كارثة عظيمة حلت بالصليبيين فى شمال الشام « وحطمت اسطورة ان الفرنج لا يقهرون » واوقفت تقدمهم شرقا على حساب المسلمين ، واتاحت للملك رضوان صاحب حلب استرداد القلاع والمدن القريبة من بلاده ، كمعرة مصرين وسرمين ، واستغل

---

(١٧) الفارقى : تاريخ ميافارقين ص ٢٧٤ ، طبعة مصر ١٩٥٩ .
(١٨) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٧٤ .
(١٩) رنسيمان : الحروب الصليبية ج٢ ص ٧٢ ، عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص٤٠٤ .
(٢٠) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٩ ط مصر ١٩٥١- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٨٨ (ذكر ابن الجوزى فى المنتظم ج٩ ص ١٣٧ وابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٧٥ ان عدد قتلى الفرنج بلغ اثنى عشر الف) .

شمس الخواص امير رفينه هزيمة الصليبين هذه فهاجم القلاع الصليبية القريبة ونجح فى استعادة صوران شرقى شيزر • ولم تلبث بقية الحاميات الصليبية المرابطة فى البارة ومعرة النعمان وكفر طاب ان لاذت بالفرار الى انطاكية ، التى اضحت حدودها محصورة بين القويق وبحيرة العمق ، بعد ان كانت تلك الحدود قد قاربت مشارف حلب[٢١] • ويعلق المؤرخ الدمشقى ابن القلانسى على انتصار المسلمين فى حران واثره على الفرنج فيقول : « كان نصرا حسنا للمسلمين لم يتهيأ مثله وبه ضعفت نفوس الافرنج وقلت عدتهم وفلت شوكتهم وشكتهم وقويت نفوس المسلمين وارهفت عزائمهم فى نصرة الدين ومجاهدة الملحدين وتباشر الناس بالنصر عليهم وايقنوا بالنكاية فيهم والادالة منهم »[٢٢] •

وبعد الفراغ من وقعة حران عاد الامير سقمان الارتقى الى بلاده ومعه اسيره جوسلين فاستولى فى طريقه على عدة قلاع صليبية ، ذلك انه امر عساكره بارتداء ملابس قتلى الفرنج فتمكن بهذه الخدعة من الاستيلاء على تلك القلاع بسهولة فقد (كان الفرنج يخرجون ظنا منهم ان اصحابهم نصروا فيقتلهم ويأخذ الحصن منهم)[٢٣] •

اما شمس الدولة جكرمش فانه سار الى حران فتسلمها وعين فيها نائبا من قبله وتقدم نحو امارة الرها واقتحم فى طريقه قلاع الفرنج فى شبختان شرقى الرها ثم ضرب الحصار حول هذه المدينة •

---

(٢١) رنسيمان : الحروب الصليبية ج٢ ص ٧٧ـ عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٤٠٥ •

(٢٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ •

(٢٣) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٧٥ رنسيمان : الحروب الصليبية ج٢ ص ٧٥ • (ذكر ابن الاثير ان جكرمش ارسل رجاله الى معسكر سقمان فأخذوا اسيره بلدوين الثانى وجاءوا به اليه وكاد القتال ينشب بين اصحابه ورجال سقمان الا ان الاخير منعهم من ذلك حفاظا على وحدة المسلمين • ص ٣٧٥) •

حصـار الرهـا :

تمكن بوهيمند وتانكرد من الوصول الى الرها فـي مايس ١١٠٤ م بعد هروبهما من موقعة حران ، وقد عمل هذان الاميران منذ وصولهما الى المدينة على رفع معنوية سكانها واعدادهم للدفاع عنها ضد الهجوم المنتظـر الذى سيقوم به امير الموصل .

وقد ابدى سكان الرها من الارمن ولاء شديدا لهـذين الاميرين والتمس من تبقى من فرسان الرها وعلى رأسهم كبير الاساقفة من الامير تانكرد ان يقبل الوصاية على المدينة ريثما يتم اطلاق سراح بلدوين الثانى من الاسر ، فاقام تانكرد فى الرها بينما عاد بوهيمند مسرعا الى انطاكيـة ليتمكن من مواجهة الخطر الذى أحاط بامارته بعد هزيمة الصليبيين فى حران (البليخ) [٢٤] .

وكان جكرمش قد انشغل بمهاجمة بعض الحصون الصليبية فـي شبختان ، فاتاح تأخره هذا لتانكرد فرصة اصلاح وسائل الدفاع عن الرها والاستعداد للمعركة ، ولم يكد بوهيمند يرحل عن الرها حتى ظهـرت قوات جكرمش امام اسوارها ، ونجح تانكرد فى الصمود امام اول هجوم قام به المسلمون ، الا انه وجد نفسه غير قادر على الدفاع عن المدينة بمفرده ، واحس بضغط شديد حمله على الاستنجاد ببوهيمند ، فبادر الاخير لمساندة ابن اخته (تانكرد) رغم المشاكل التى كانت تحيط بانطاكيـة ، واستبد اليأس بامير الرها فامر قواته بمهاجمة المسلمين ليلا فجرى اشـتباك قصير بين الفريقين اضطر على اثره جكرمش الى الانسـحاب « تاركـا وراءه معسكره الزاخر بالثروة » [٢٥] . وعادت عساكر الموصل الى بلادها بعد

---

(٢٤) رنسيمان : ج٢ ص ٧٤ ـ عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص٤٤٦ .

(٢٥) نفس المرجع : ص ٧٦ ـ نفس المرجـع الحركـة الصليبية ج١ ص٤٤٦ .

حصار دام خمسة عشر يوما[٢٦] .

جكرمش والسلاطين السلاجقة :

كان من نتائج الصلح الذى عقد بين بركيا روق ومحمد ابنى ملكشاه فى ربيع الآخر من سنة ٤٩٧ ان تكون للاخير البلاد الواقعة بين النهر المعروف باسبيدزوذ الى باب الابواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام وبلاد سيف الدولة صدقة بن مزيد[٢٧] . فاقام السلطان محمد بعد عقد الصلح مع أخيه بمدينة تبريز حتى صفر من سنة ٤٩٧هـ حيث توافدت عليه العساكر ، فسار الى مراغة ثم أربيل يريد انتزاع الموصل من الامير جكرمش . فلما علم الاخير بذلك استعد لمواجهة عساكر السلطان محمد . فاهتم بتقوية وسائل الدفاع عن المدينة وجدد سورها وامر اهل السواد المنتشرين خارج البلد بدخول الموصل واذن لاصحابه فى نهب كل من يمتنع عن الدخول . فلما وصل السلطان محمد حاصر المدينة وارسل الى جكرمش مذكرا اياه ان بلاد الموصل والجزيرة هى من نصيبه وعرض عليه كتب بركياروق الذى يؤيد هذا الادعاء ويأمره بتسليم البلد الى اخيه ، ووعد السلطان محمد جكرمش بان يقره على ما بيده من البلاد ان هو دخل فى طاعته ، الا ان صاحب الموصل امتنع عن تسليم البلد وقال : « ان كتب السلطان (يقصد بركياروق) وردت الي بعد الصلح تأمرنى ان لا اسلم البلد الى غيره »[٢٨] .

ولما وجد السلطان محمد امتناع جكرمش عن تسليم البلد شرع فى قتاله ، ويذكر ابن الاثير ان اهل الموصل استبسلوا فى الدفاع « لمحبتهم

---

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٧٥ .

(٢٧) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٩ ص ١٣٨ ـ الحسينى : اخبار الدولة السلجوقية ، ص ٧٨ ، ط لاهور ١٩٣٣ ـ سبط ابن الجوزى ج٨ ص ٨ ط/١٩٥١ .

(٢٨) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٨٣ .

لجكرمش لحسن سيرته فيهم » . ثم أمر جكرمش بفتح أبواب في سور الموصل ليتسنى لرجاله الخروج ومقاتلة عساكر السلطان محمد ، فاستطاع بذلك ان يوقع اصابات كثيرة بالمحاصرين ، ثم تمكن جند السلطان من احداث ثغرة فى سور الموصل فانسحبوا وقد أدركهم الليل وفوجئوا فى صباح اليوم التالى بالسور وقد سدت ثغراته وشحن بالمقاتلة ، وكانت بعض عساكر جكرمش قد اجتمعت بتل يعفر (بتليعفر) فهاجموا مؤخرة الجيش السلجوقى وقطعوا الميرة عنهم ، ودام حصار الموصل حتى العاشر من جمادى الاولى حيث وصل الخبر الى جكرمش بوفاة السلطان بركياروق فى ربيع الآخر ٤٩٨ هـ فاسقط ذلك فى يده ، وتحرج موقفه امام السلطان محمد الذى انفرد فى السلطنة بعد وفاة اخيه[٢٩] . فمال جكرمش الى الصلح ، واحضر اعيان البلد واستشارهم فيما يفعله بعد موت السلطان بركياروق فأكدوا ولاءهم له وقالوا: «أموالنا وأرواحنا بين يديك وأنت أعرف بشأنك فاستشر الجند فهم اعرف بذلك »[٣٠] . فاجتمع جكرمش مع امراء الجيش وتدارس معهم الموقف وطلب اليهم ابداء الرأى ، فحسنوا له طاعة السلطان محمد وعقد الصلح معه وقالوا : « لما كان السلطان حيا (يقصدون بذلك بركياروق) قد كنا على الامتناع ، ولم يتمكن احد من طروق بلدنا ، وحيث توفى فليس للناس اليوم سلطان غير هذا والدخول تحت طاعته اولى »[٣١] فاخذ بمشورتهم ونزل عند رأيهم فارسل الى السلطان يعرض عليه الصلح والدخول فى طاعته[٣٢] ويطلب حضوره وزيره سعد الملك ، فاجابه السلطان الى ذلك وانفذ وزيره الى الموصل

---

(٢٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٧ . ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٨٣ .

(٣٠) ابن الاثير : الكامل ، ج١٠ ص ٣٨٤ .

(٣١) المصدر السابق : الكامل ج١٠ ص ٣٨٤ .

(٣٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٧ .

واجتمع الوزير بجكرمش واشار عليه بضرورة مقابلة السلطان محمد وقال لـه : المصلحة ان تحضر الساعة عند السلطان فانه لا يخالفك فى جميع ما تلتمسه وأخذ بيده وقام فسار معه جكرمش وقد اظهر اهل الموصل(٣٣) قلقهم البالغ على مصير اميرهم وظنوا ان السلطان سيغدر بـه (فجعلـوا يبكون ويضجون ويحثون التراب على رؤوسهم ، فلما دخل على السلطان محمد اقبل عليه ، واكرمه ، وعانقه ، ولم يمكنه من الجلوس ، وقـال : ارجع الى رعيتك ، فان قلوبهم اليك ، وهم متطلعون الى عودك ، فقبّـل الارض وعاد ومعه جماعة من خواص السلطان»(٣٤) .

ثم ارسل الامير جكرمش الى السلطان محمد يدعوه لدخول الموصل فلم يرغب السلطان فى ذلك ، فعمل له جكرمش سماطا بظاهر الموصـل وحمل اليه من الهدايا والتحف ولوزيره اشياء جليلة المقدار ، وبعد ان انتهى السلطان من تقرير قواعد الصلح مع صاحب الموصل سار الى بغداد وصحبه كل من جكرمش وسقمان القطبي ، واسماعيل بن عم ملـكشـاه وغيرهم من الامراء فوصلها فى ٢٢ جمادى الاولى سنة ٤٩٨ هـ وخطب له فى الجانب الغربى منها ، وللملكشاه بن بركياروق فى الجانب الشرقى ، ثم استقرت الامور ببغداد للسلطان محمد فاقام بها الى شعبان ثم قفل عائدا الى اصبهان وعاد جكرمش الى الموصل(٣٥) .

جكرمش وامراء المدن الاسلامية المجاورة :

آ ـ العلاقات بين جكرمش وصاحب مـاردين : كـانت مـاردين تخضع لحكم الامير ياقوتى بن ارتق (ابن اخى سقمان القطبى) ، فجمع عسكره وسار الى نصيبين واغار على جزيرة ابن عمر وكانت من امـلاك

---

(٣٣) ابن الاثير : الكامل ، ج١٠ ص ٣٨٤ .
(٣٤) المصدر السابق الكامل ج١٠ ص ٣٨٤ . ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٨ .
(٣٥) المصدر السابق : الكامل ج١٠ ص ٣٨٤ .

صاحب الموصل فخرج اليه جكرمش ونازله وكان ياقوتى قد اصابه مرض عجز معه عن لبس السلاح وركوب الخيل فحمل الى فرسه ، فاصيب بسهم اصابة مميته ، فسقط عن فرسه ، « فاتاه جكرمش ، وهو يجود بنفسه فبكى عليه وقال له : ما حملك على ما صنعت يا ياقوتى ؟ فلم يجبه ، فمات »[٣٦] .

وطالبت زوجة ارتق بثأر ابن ابنها ياقوتى فحرضت ابنها سقمان على جكرمش وجمعت التركمان ، فحاصروا نصيبين وكانت تابعة لامارة الموصل ، فلما بلغ جكرمش حصار سقمان لنصيبين ارسل اليه مبلغا كبيرا من المال خفية فاخذه سقمان وانسحب عن نصيبين وقال لاصحابه ان ياقوتى قتل فى الحرب ولا يعرف قاتله[٣٧] .

وبعد مقتل ياقوتى تولى اخوه علي حكم ماردين ، فدخل فى طاعة جكرمش لقاء مبلغ ٢٠ الف دينار يحمل اليه فى كل سنة . وحدث ان اضطر علي الى مغادرة ماردين فاستخلف بها اميرا اسمه عليا ايضا ، فاتصل الاخير بالامير سقمان واخبره بان ابن اخيه علي يريد ان يسلم ماردين لصاحب الموصل فاسرع سقمان الى ماردين وتسلمها بنفسه ، فحضر اليه ابن اخيه علي وطلب اعادة القلعة اليه ، فامتنع سقمان عن تسليمها وقال : « انما اخذتها لئلا يخرب البيت » وعوضه عنها « بجبل جور »[٣٨] .

ثم ارسل علي الى جكرمش يطلب منه ارسال المال المتفق عليه ،

---

(٣٦) ابن الاثير : ج١٠ ص ٣٩١-٣١٢ .
(٣٧) ابن الاثير ج١٠ ص ٣٩٢ .
(٣٨) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج١ ص ١٣٧ ، ابن الوردى ج٢ جص ٢٣ ، ط/النجف ١٩٦٩ . جبل جور : بالجيم المضمونة ، وسكون الواو ، وراء : اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى ارمينية ، فيها قلاع وقرى للارمن . مراصد الاطلاع ، ج١ ص ٣١١ .

فامتنع جكرمش عن ذلك ، اذ لم تبق هناك ضرورة لدفع المال بعد خروج ماردين من يد علي وانتقاله الى جبل جور . وارسل الى علي يقول : انما كنت اعطيتك احتراما لماردين وخوفا من مجاورتك ، والان فاصنع ما انت صانع فلا قدرة لك علي »[٣٩] .

ب ـ العلاقات بين جكرمش والملك رضوان بن تتش صاحب حلب :

وفي سنة ٤٩٩هـ نهض الملك رضوان بن تتش لقتال الصليبيين ، فراسل كل من الامراء يلقازى بن ارتق ، واصبهذ صباوة ، والبي بن ارسلان تاش صاحب سنجار وهو صهر جكرمش . فاجتمعت كلمتهم على حرب الفرنج[٤٠] . واقترح ايلغازى بن ارتق على رضوان مهاجمة بلاد جكرمش والاستيلاء عليها ليكون ذلك عونا لهم على حرب الفرنج بالاموال والعساكر (واخضاعها ليتقوى بها والاستفادة من اموالها وجندها) فوافقه فى ذلك البي صاحب سنجار فساروا فى مستهل رمضان ٤٩٩ هـ فى عشرة آلاف فارس نحو نصيبين ، وكان بها اميرين من اصحاب ايلغازى فقاتلوا اهل البلد من وراء السور ، واصيب البي بن ارسلان تاش اثناء الحصار واضطر للعودة الى سنجار[٤١] .

وكان جكرمش فى تلك الفترة مقيما فى موضع يعرف « بالحامة » بالقرب من « طنزة » يتداوى بمائها من مرضه ، فلما سمع بنزول عساكر رضوان على نصيبين ، عاد مسرعا الى الموصل لمواجهة الموقف ، فنزل على باب البلد ، واعد العدة للدفاع عن نصيبين ، وعمد جكرمش الى افساد عسكر رضوان ، فأرسل الى أعيانهم « ورغبهم حتى أفسد نياتهم » وأمر اصحابه بنصيبين « بخدمة الملك رضوان وباخراج الاقامات اليه مع الاحتراز

---

(٣٩) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٣٩٢ .
(٤٠) ابن الاثير : الكامل ١٠ ص ٤٠٥ .
(٤١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٤٠٥ .

منـــه » ومضى صاحب الموصل فى خطته التى ترمى الى انهيار التحالف ضده وبذر الشقاق بين المتحالفين ، فبعث الى الملك رضـوان يعلن ولاءه له ويذكره بانه لن يجنى شيئا من قتاله واعاد عليه حصار السلطان محمد للموصل الذى انتهى بعقد الصلح بينهما ، وقال : ان السلطان محمد قـد حصرنى ، ولم يبلغ مني غرضا » ، وحرضه على ايلغازى واشترط عـلى رضوان ان يقبض عليه ووعده بالمساهمة معه فى قتال الصليبيين بالرجـال والاموال والسلاح ، فوجد هذا العرض مكاناً في نفس رضوان الذى كان قد بدأ يغير موقفه من ايلغازى ، فاستدعاه يوماً وقال له: هذه بلاد ممتنعة ، وربما استولى الفرنج على حلب ، والمصلحة مصالحة جكرمش ، واستصحابـه معنا ، فانه يسير بعساكر كثيرة ظاهرة التجمل ، ونعود الى قتـال الفرنج ، فان ذلك مما يعود باجتماع شمل المسلمين »[٤٢] فلم يوافق ايلغازى على دعـوة الصلـح مـع جكـرمش وهـــدد رضـــوان بقتـالـه ان هـــو امتنع عن المشاركة فى اخذ بلاد جكرمش ، وقال له : انك جئت بحكمك ، وانت الان بحكمى لا امكنك من السير بدون اخذ هذه البلاد. فان اقمت ، والا بدأت بقتالك »[٤٣] . وكان رضوان قد أعـد نفرا من أصحابه وأمرهـم بالقبض على ايلغازى ، فلما جرى بينهما هذا الحديث وثبوا على ايلغـازى وقيدوه فلما سمع اصحابه من التركمان فارقوا رضوان والتجأوا الى سور المدينة ووضع ايلغازى فى قلعتها ، فتفرق اصحابه ، ثم رحـل رضـوان عائدا الى حلب[٤٤] .

اما جكرمش فانه تقدم على رأس قواته من الموصـل ، فلمـا بلـغ تل يعفر (تليعفر) وصله الخبر بانصراف رضوان الى بـلاده وانهيـار

---

(٤٢) ابن الاثير : ج١٠ ص ٤٠٦ .
(٤٣) ابن الاثير : ج١٠ ص ٤٠٦ .
(٤٤) ابن الاثير : ج١٠ ص ٤٠٦ .

الحلف ، فتوجه الى سنجار ، فوصله عندها رسل الملك رضوان يطلب منه النجدة وتنفيذ ما تعهد له به من بذل المساعدة ، فراوغ صاحب الموصل فى الاجابة ولم يف بوعده لرضوان . وعزم على مهاجمة سنجار انتقاما من صهره البي بن أرسلان لموقفه المعادى له واتفاقه مع رضوان وايلغازى على مهاجمة بلاد جكرمش . وكان البي قد انسحب الى سنجار بعد ان اصيب اصابة مميتة عند نصيبين ، فلما حاصر جكرمش سنجار قرر الخروج اليه ليعتذر منه ، فامر اصحابه ان يحملوه اليه فحملوه فى محفة ، فحضر عنده ، واخذ يعتذر مما كان منه ، وقال : جئت مذنبا ، فافعل بي ما تراه ، فرق له واعاده الى بلده ، ولم يلبث البي ان توفى بعد عودته بقليل ، فاعلن اصحابه العصيان على جكرمش فقاتلهم بقية رمضان وشوال ، فلم يظفر منهم بشيء ، فتقدم تميرك عم البي الى جكرمش وتفاوض معه على عقد الصلح واعلن خضوعه ، وعاد صاحب الموصل الى بلاده(٤٥) .

اما عن علاقة جكرمش بحران فقد كانت هذه المدينة من جملة البلاد الخاضعة لصاحب الموصل ، وكان يحكمها نوابا من قبله ، وفى سنة ٤٩٩ هـ خرج الملك قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش صاحب بلاد الروم الى قتال الفرنج فى امارة الرها ، فذكر ابن القلانسى ان اصحاب جكرمش المقيمين بحران راسلوا قلج ارسلان واستدعوه ليتسلم البلد ، فسارع الى حران وتسلمها واقام بها اياما ، فمرض مرضا شديدا اضطره للعودة الى ملطية وترك اصحابه بحران(٤٦) .

تولية جاولي سقاوة على الموصل وأسر جكرمش :

فى المحرم من سنة ٥٠٠هـ اقطع السلطان محمد الامير جاولي سقاوة الموصل وديار بكر والجزيرة كلها، فحضر جاولى الى بغداد واقام

---

(٤٥) ابن الاثير : ج١٠ ص ٤٠٧ .
(٤٦) ابن القلانسى ، ص ١٥٠ .

بها الى بداية ربيع الاول ثم سار الى بلاد الموصل لانتزاعها من جكرمش . وقد ارجع المؤرخ ابن الاثير سبب تنحية جكرمش عن الموصل الى ان الاخير لم يف بالتزاماته تجاه السلطان محمد ، (وتثاقل فى الخدمة وحمل المال)[٤٧] .

خرج الامير جاولي يريد الموصل فجعل طريقه على «البوازيج»[٤٨] فاستولى عليها ونهبها اربعة ايام ، وغدر باهلها بعد ان آمنهم ، ثم تقدم الى اربل ، وكان صاحب الموصل لما بلغه مسيرة جاولى الى بلاده بادر الى جمع العساكر استعدادا للقائه ، فوصله كتاب ابي الهيجاء بن موسك الكردى الهمذانى صاحب اربل يخبره فيه استيلاء جاولي على البوازيج ، ويطلب اليه الاسراع فى الخروج والاجتماع معه لقتاله وهدد بانه سوف يضطر (الى موافقته والمصير معه) ، وهكذا تحرج موقف جكرمش واضطر للعبور الى شرقي دجلة قبل استكمال اجتماع عساكره ، وانضمت اليه قوات اربل فى قرية « باكلبا » من اعمال اربل ، ووصل جاولي بالف فارس من اصحابه اما جكرمش فكان معه الفي فارس واشتبك الفريقان فانكشف اللقاء عن هزيمة عسكر جكرمش الذى لم يستطع الفرار من المعركة (لفالج كان به) وكان يحمل فى محفة لعدم استطاعته ركوب الخيل ، فاخذ اسيرا وحمل الى جاولي فامر بحبسه وتشديد الحراسة عليه . ووقع اولاد أبي الهيجاء في الاسر أيضاً[٤٩] .

---

(٤٧) ابن الاثير ، ج١٠ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ (ذكر ابن القلانسى سببا آخر لتنحية جكرمش عن الموصل ، انظر ص ١٥٦) .

(٤٨) البواريج : بلد فوق ما يقابل تكريت قريب من مصب الزاب الاسفل الى دجلة (البغدادى : مراصد الاطلاع ، ج١ ص ٢٢٧) .

(٤٩) ابن الاثير : ج١٠ ص ٤٢٣ (ورد اسم موسك الكردى فى تاريخ الموصل لسليمان الصايغ موشك ، ص ١٥٧) .

حصار الموصل ووفاة جكرمش :

وبعد هزيمة جكرمش ووقوعه فى الاسر عمد اصحابه فى الموصل الى تولية ولده زنكي وكان صبيا فى الحادية عشرة من عمره ، « وخطبوا له واحضروا له اعيان البلد والتمسوا منهم المساعدة فاجابوا الى ذلك»(٥٠) ، وكان متحفظ قلعة الموصل مملوكا لجكرمش يدعى « غزغلي » فتولى امر الدفاع عن المدينة فقام فى ذلك خير قيام فاخرج الاموال وفرقها على الجند، واحكم امر الدفاع عن اسوار الموصل ، ثم عمد الى طلب المساعدة من الخارج فارسل مستنجدا بالامير سيف الدولة صدقة بن مزيد ، والامير قلج أرسلان صاحب بلاد الروم ، وآق سنقر شحنة بغداد ، ووعد كلا منهم بان يسلم البلد اليه ليحثهم على سرعة الوصول ، اما جاولى فانه تقدم الى الموصل وضرب حولها الحصار وكان اصحاب جكرمش قد تحصنوا داخل البلد ومنعوا جاولي من الدخول . فامر الاخير بحمل جكرمش على بغل والطواف به حول السور فى محاولة لارغامهم على التسليم وكان جكرمش نفسه يأمر اصحابه بالتسليم فلم يجيبوا الى ذلك وكان جاولي قد امر « بسجنه فى جب ويوكل به من يحفظه لئلا يسرق ، فاخرج فى بعض الايام ميتا وعمره نحو ستين سنة »(٥١) .

استيلاء الملك قلج ارسلان على الموصل :

سارع قلج ارسلان صاحب بلاد الروم الى الموصل بعد مكاتبة

---

(٥٠) ابن الاثير ج ١٠ ص ٤٢٤ ، ابو الفدا : المختصر ج٤ ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٣٩-١٤٠ . ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ النجف ١٩٦٩ ، ص ٢٥ .

(٥١) ابن الاثير : ج١٠ ص ٤٢٤ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٨ ابو الفدا : المختصر ج٤ ص ١٤٠ ابن الوردى : تتمة ج٢ ص ٢٥ (ذكر ابن القلانسى ان جاولى امر بقتل جكرمش وانفذ رأسه الى الموصل ص ١٥٦) .

اصحاب جكرمش ودعوتهم له فلما علم جاولى بوصوله الى نصيبين ، انسحب عن الموصل الى سنجار ، وذكر ابن الاثير ان قسيم الدولة البرسقى وصل الموصل بعد رحيل جاولى عنها ، ونزل بالجانب الشرقى ، فلم يلتفت احد اليه فعاد فى باقى يومه(٥٢) .

اما قلج ارسلان فانه مكث فى نصيبين لتلتحق به باقى العساكر من بلاد الروم ، فى الوقت الذى انضم فيه الامير ايلغازى بن ارتق الى جاولي فى سنجار فاصبح جيشه يتألف من اربعة آلاف فارس فأتاه كتاب الملك رضوان صاحب حلب يستدعيه الى الشام لقتال الفرنج ، فسار جاولي الى الرحبة ، فارسل اهل الموصل الى قلج بنصيبين يدعونه لتسلم البلد ويستحلفوا لهم فسار معهم الى الموصل فدخلها فى الخامس والعشرين من رجب ٥٠٠ هـ ، وخلع على زنكى بن جكرمش واصحابه ، واعلن الخطبة لنفسه بعد الخليفة واسقط اسم السلطان محمد من الخطبة ، ثم تسلم القلعة من « غزغلي » مملوك جكرمش وعين فيها من قبله دزدارا ، وامر برفع الرسوم المحدثة فى الظلم واقر القاضى ابا محمد عبدالله بن القاسم ابن الشهرزورى على قضاء الموصل ، وجعل الرئاسة لابى البركات محمد ابن محمد بن خميس(٥٣) .

مقتل قلج ارسلان واستيلاء جاولى على الموصل :

بعد ان فرغ قلج ارسلان من امر الموصل سار على رأس اربعة آلاف فارس من أصحابه يريد حرب جاولي ، وجعل ابنه ملكشاه أميراً على الموصل وكان صبيا له من العمر احدى عشرة سنة ، فعين معه اميرا يدبره مع جماعة من العسكر . وكان مع جاولي الملك رضوان صاحب حلب ، وحدث اللقاء بين الفريقين فى ٢٠ ذى العقدة سنة ٥٠٠ هـ ، فانهزم عسكر

---

(٥٢) ابن الاثير : ج١٠ ص ٤٢٦ .

(٥٣) ابن الاثير : ج١٠ ص ٤٢٧ ـ المختصر ج٤ ص ١٤٠ ، ابن الوردى ج٢ ص ٢٦ .

قلج ارسلان واستباح اصحاب جاولي « ثقلهم وسوادهم ، فلما رأى ذلك قلج القى بنفسه فى الخابور وحمى نفسه من اصحاب جاولى بالنشاب فانحدر به الفرس الى ماء عميق فغرق وظهر بعد ايام فدفن بالشمسانية من قرى الخابور » ، وتقدم جاولى الى الموصل فتسلمها بالامان ، فارسل ملكشاه بن ارسلان الى السلطان محمد فلم يزل مقيما عنده حتى هرب من العسكر فى اوائل سنة ٥٠٣ هـ وعاد الى مملكة ابيه فى بلاد الروم(٥٤) .

مصـــادر البحث

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، طبعة بيروت ١٩٦٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة وزارة الارشاد المصرية) .

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ، طبعة حيدر آباد .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول بيروت .

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ .

(٦) ابن الوردى : تتمة المختصر فى اخبار البشر ، النجف ١٩٦٩ .

(٧) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، بيروت ١٩٦٤ .

(٨) البغدادى : مراصد الاطلاع ، مصر ١٩٥٤ .

(٩) الحسينى : اخبار الدولة السلجوقية ، لاهور ١٩٣٣ .

(١٠) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ٣ أجزاء ترجمة الباز العرينى بيروت ١٩٦٨ .

(١١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ مصر ١٩٥١ .

(١٢) سليمان الصايغ : تاريخ الموصل ج١ مصر ١٩٢٣ .

(١٣) عاشور : الحركة الصليبية جزءان مصر ١٩٦٣ .

(١٤) الفارقى : تاريخ ميافارقين ، مصر ١٩٥٩ .

---

(٥٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٧ ، ابن الاثير : ج١٠ ص ٤٢٩-٥٣٠ ابو الفداء : المختصر ج٤ ص ١٤٠ ، ابن الوردى ج٢ ص ٢٦ .